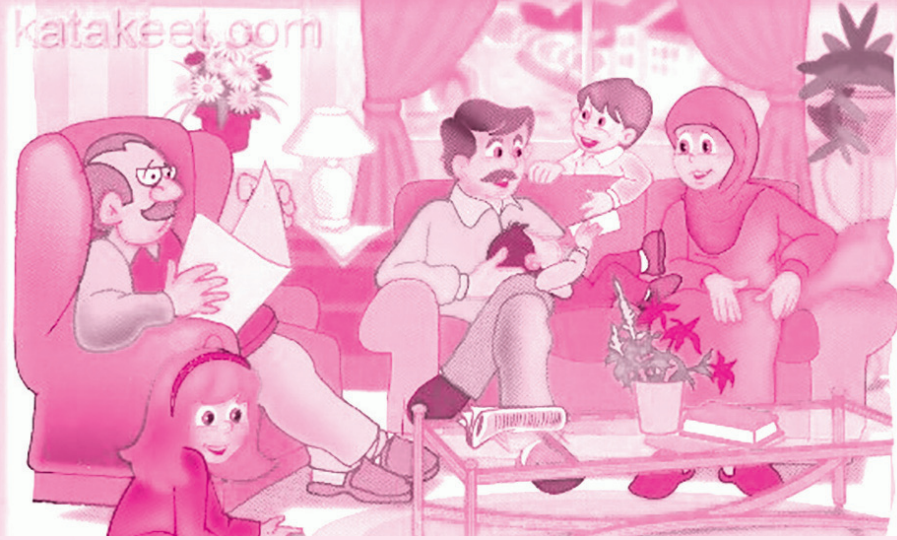




«ترتيب» الأبناء الأسرى.. وأثره على السلوك النفسي



د. محمد المهدي
رئيس قسم الطب النفسي
جامعة الأزهر - فرع دمياط

من الملاحظات المتواترة لدى المتخصصين في العلوم النفسية (وحتى لدى عموم الناس) أن ثمة سمات مشتركة تنتج عن ترتيب الطفل في أسرته وربما تلازمه طيلة حياته متفاعلة مع عوامل أخرى جينية وأسرية واجتماعية ، فمثلا يختلف الطفل الأول (البكرى) عن الطفل الأخير (آخر العنقود) وكلاهما يختلف عن الطفل الثاني (الراضى والمتعاون) ، والطفل الأوسط (المنسى) ، كما أن الولد الوحيد له سماته والبنت الوحيدة لها سماتها . وهذه السمات المميزة ليست بالضرورة حتمية أو لازمة أو أحادية الوجهة ، ولكنها كثيرة الحدوث بشكل يستدعى الاهتمام من الوالدين والمربين والمعالجين .. وفيما يلي بعض الأمثلة :

وتتعود على تحمل المسؤولية ورعاية إخوتها .. بل ورعاية غيرهم وتصبح مجبولة على أمور حياتها وتتعاظم مع الآخرين من منطلق الرعاية والوصاية الأمومية. وقد يحدث العكس فتتوحد على الأم (إذا كانت ترفضها أو تكرهها) وتغار منها بشدة وتصبح وكأنها ضرتها، وقد تنافسها على اهتمام الأب أو اهتمام الآخرين عموماً وتصبح دائماً في علاقة ندية مع أى امرأة لها صفة السلطة الأمومية (حماتها مثلاً) ، وتصبح شغوفة بجذب اهتمام أى رجل وخطفه من زوجته (انطلاقاً من موقف أوديبى) . والابن الأكبر حين يتزوج فهو يحتاج إلى زوجة مطيعة (أو خاضعة)، فهو لا يحتمل المناقضة أو الندية أو مخالفة أوامره كثيراً، وكذلك البنت الكبرى لا تحتمل زوجاً مستتبداً برأيه، وقد تحتاج لأن تكون زوجة أما ترعى زوجها وكأنه ابنها .

الطفل الثاني: يأتى هذا الطفل فيجد طفلاً قد سبقه ولذلك لا تكون الغيرة لديه شديدة كالطفل الأول، بل هو يجد في الطفل الأول

كانا يعيشان وحدهما بعيداً عن كنف العائلة الأكبر . وقد يعوّل الأب على الولد الذكر فى أن يخلفه فى الأسرة وأن يكون رجلاً يعتمد عليه ويفخر به فيبالغ فى تنشئته ليكون رجلاً قبل الأوان، وقد يقسو عليه ويحرمه طفولته، وقد يبالغ فى توقعاته منه، وقد يقابل الطفل هذه المحاولات بالتمرد على رغبة الأب ويعيش حياته كما يريد، هو، أو يعيش عكس رغبة الأب فتحدث حالة من الإحباط والكراهية لدى الطرفين . أما إذا قبل الابن فكرة «ولى العهد» لأبيه وتوعد على تحمل المسؤولية مبكراً فإنه ينضج قبل الأوان ويتوعد أن يكون مسئولاً ورعياً للآخرين ولكنه يواكب الرعاية والمسؤولية بقدر من الاستبداد فى الرأى، وكأنه تعوّد أن يكون الأكبر والأهم بلا منازع.

أما إذا كانت بنتاً فإن الأم تحرص على أن تتحمل معها المسؤوليات الأسرية كالعناية بإخوتها أو المساعدة فى بعض أعمال المنزل، وقد تستجيب البنت لذلك وتنشأ على تحمل المسؤولية وتوضح سريعاً (هذا إذا أحببت الأم وقبلت رغبتها)

الطفل الأول (البكرى) .. أول فرحتنا) : يأخذ اهتماماً كبيراً من والديه وربما من العائلتين ، ويتوعد أن كل شئ متاح له ، فهو (أو هى) الملك المتوّج يجلس على العرش وحده والكل يفرح بكل ما يصدر عنه ، ولذلك تكون الغيرة لديه شديدة لأنه تعوّد على أنه كل شئ ، وإذا جاء بعده أحد فإن أى اهتمام يأخذه يكون مخصوصاً منه لأنه تعوّد على مستوى «كل الاهتمام» . إن الطفل الأكبر يمر بمرحلة يكون فيها هو الطفل الوحيد يحصل على كل اهتمام ورعاية والديه فهو مركز العائلة وفجأة يجد نفسه وقد أزاحه طفل جديد من فوق عرشه، وجاء هذا الطفل ليسحب منه الاهتمام، وأصبح عليه أن يتقبل مشاركة هذا القادم الجديد له فى حب واهتمام أبويه، وهذا قد يحدث صدمة على المدى القصير والبعيد للطفل الأول مالم يعمل الأبوان على طمأنته وعلى استمرار الاهتمام به . وعلى الرغم من الحب والاهتمام للطفل الأول إلا أنه يعانى من أخطاء تربوية عديدة نظراً لقلة خبرة أبويه فى التربية، فهو أول تجربة تربوية لهما، خاصة إذا

توقعاته من الآخرين عاليا جدا بحيث يراهم دائما مقصرين في حقه ويشكو دائما من الحرمان (على الرغم من كل ما يحظى به من اهتمام) وغالبا ما يكون سخطا على والديه (على الرغم من كل ما يفعلانه له)، فهو قد تضخمت لديه مستقبلات الأخذ وضمرت لديه منابع العطاء. وهذه الاحتمالات للولد الوحيد أو البنت الوحيدة تحدث غالبا حين يتورط الوالدان في التدليل والحماية الزائدة والإشباع المفرط للحاجات، أما إذا انتبهت لهذه الأمور من البداية فليس بالضرورة أن يصبح كل ولد وحيد أو بنت وحيدة مشكلة. وقد ينجح الولد الوحيد (أو البنت الوحيدة) نجاحا نرجسيا بمعنى أنه تعود أن يكون مهما ومتفردا، ولذلك يسعى لأن يحتفظ بأهميته وتفردته من خلال التميز في شيء معين وتحقيق إنجاز معين يضمن له مكانته لدى الوالدين وبعد ذلك لدى الناس.

والولد الوحيد يشعر بالمنافسة من الأب، ويقترب كثيرا من الأم (ابن امه)، ولهذا يُصاب بما يسمى «عقدة الأم»، فهو يريد لها طول الوقت ويتبعها في كل مكان ولا يريد والده في الصورة، وقد يستبعدانه هو وأمه من المجال النفسي والتربوي، ومع هذا نجد هذا الطفل المتمركز حول أمه كثير النزاع معها وربما يهينها أو يضربها، ولكنه أبدا لا يستطيع الابتعاد عنها.

وقد يفشل الولد الوحيد (البنت الوحيدة) في حياته نظرا لتعوده على الحماية الزائدة والرعاية الزائدة وعدم قدرته على تحمل المسؤولية أو تحمل الإحباط، وتوقعاته المبالغ فيها من الآخرين التي لن يحققها له الآخرون كما كان يحققها والداه، وقد يبحث في علاقاته الاجتماعية عن يراعاه ويحميه ويصبح اعتماديا عليه، وأيضا في علاقته الزوجية يبحث عن شريك يحتويه ويتحمل عنه كافة المسؤوليات ويعيد معه تاريخ علاقته بأمه، فهو يحتاج الزوجة الأم، وهي تحتاج الزوج الأب.

الابن (البنت) بعد فترة عقم (جاء على شوقه) : حيث تمر سنوات بعد الزواج دون إنجاب،

وجوده يعلن عن نفسه، وقد يأخذ أحد طريقتين: طريق التميز والتفوق (خاصة إذا كان يحب أبويه ولم يشعر بإهمالهما)، أو طريق المشاغبة والسلوكيات السلبية (خاصة إذا شعر بإهمال والديه أو نبذهما له)، فهو في النهاية يحتاج لاهتمام، فإما أن يأخذ بشكل إيجابي أو يأخذه بشكل سلبي.

الولد الوحيد (أو البنت الوحيدة) : وقد يكون وحيدا مطلقا (بمعنى أنه لا يوجد غيره)، أو وحيدا في نوعه (ولد وسط بنات، أو بنت وسط أولاد)، وهذا الوضع يعطيه إحساسا مبالغ فيه بالأهمية والتفرد، ويشعر الطفل (الطفلة) بأنه مركز الكون ومحط اهتمام الجميع، وأن كل طلباته مجابة (أو يجب أن تكون دائما مجابة)، فهو لا يتحمل التجاهل، ولا يتحمل أن يسمع كلمة لا، فالجميع تحت أمره ورهن إشارته، وكل ما يصدر عنه مقبول ومحبوب بصرف النظر إن كان صحيحا أو غير ذلك، وهو لا يعرف الخطوط الحمراء أو الممنوعات فالدنيا يجب أن تنصاع لإرادته ورغباته. وكثيرا ما يتورط الوالدان أو أحدهما (وأحيانا العائلتان) في تدليله (أو تدليلها)، وهنا قد ينشأ هذا الطفل أنانيا متمركزا حول ذاته طمعا شرها للأخذ ولا يعرف معنى العطاء لأحد.. لا يستطيع تحمل الإحباط ولا يتحمل تأخير أو تأجيل رغباته، فهو يريد كل شيء الآن، ولا يتحمل كلمة «لا» في أي شيء، ولا يتحمل مسؤولية نفسه أو مسؤولية أحد، ويطالب الآخرين بكل شيء ويلومهم دائما على أنهم لا يحققون رغباته أو يوفون باحتياجاته، ويكون سقف

الأصغر. والطفل الأصغر قد تكون لديه ميزة أنه يتعرض للتخفيف من بقية إخوته فيجد فرصة للنمو والتفوق أسرع مستفيدا من خبرات ومساعدات والديه وسائر إخوته. والطفل الأصغر في كل حالاته يحتاج دائما إلى أن يكون في كنف أسرة أو عائلة، وأن يكون له من يسترشد برأيه ويحتمى به ويعتمد عليه وقت الأزمات.

الطفل الأوسط (المنسى .. المكرر) : هذا الطفل ليست له ميزة محددة فهو ليس البكرى وليس آخر العنقود، وتزداد مشكلة الطفل الأوسط إذا كان تكرارا لنفس النوع فمثلا إذا كان ولدا بعد ولدين سابقين أو أكثر، أو كانت بنتا بعد بنتين سابقتين أو أكثر، فهنا يفقد القيمة أكثر حيث يشعر أنه مكرر، وقد يشعر أن والديه يزهدان فيه نظرا لتكراره، وتزداد أزمته (أزمتها) إذا كان التكرار كثيرا مثل أن يكون ولد بعد أربعة أولاد أو أكثر، أو بنتا بعد ثلاث بنات أو أكثر، فالأسرة تكون متشوقة لنوع طفل مختلف خاصة إذا لم يكن لديها هذا النوع فتأتي الصدمة مع تكرار نفس النوع. ولو سألت أي أم أو أي أب فيسقولان بأنهما لا يفرقان بين أبنائهما، وأن الجميع لديهما سواء، وأنه رزق من عند ربهما يرضيان به، وقد يكونا صادقين في ذلك على المستوى الديني والمستوى التربوي، ولكن على المستوى النفسي هناك اختلافات كثيرة وحسابات أخرى بعضها يكون على المستوى اللاشعوري للأبوين في طريقة استقبالهما لكل طفل حسب تربيته ونوعه.

ولهذا فإن الطفل الأوسط أو الطفل المكرر يحتاج لأن يثبت

نموذجا يحاول أن يقلده ويلحق به، وتكون لديه فكرة التعاون مع أخيه الأكبر، وليست لديه مشكلة في مشاركة أخيه لحب والديه فهو قد طرأ عليه. ونظرا لتفوق أخيه الأكبر فإنه تنشأ لديه الرغبة في اللحاق بالآخرين وكأنه في سباق، ويبذل أقصى ما عنده للحاق بمن هو أكبر أو أقوى منه. إذن فمحاور الارتكاز لدى الطفل الثاني هي: الرضا والقبول بالمشاركة، والتعاون، ومحاولة اللحاق بمن هو أكبر أو أقوى.

الطفل الأصغر (آخر العنقود) : غالبا ما يأتي (أو تأتي) ويكون الأبوان قد كبرا في السن ونضجا في التجربة التربوية ولكن تكون لديهما شفقة على هذا الصغير (أو هذه الصغيرة) الذي جاء في أواخر عمرهما، ويستشعران ضعفه وسط إخوته ووسط هذا العالم الذي لا يرحم ويكون بداخلهما خوف من ألا يتمكن من رعايته حتى يكبر، وأنه يمكن أن يتعرض لقهر من الحياة في غيابهما، ولهذا يبالغان في إغداق الحب عليه (عليها) وحمايته من بطش الآخرين، ومحاولة تعويضه عن احتمالات الحرمان المتوقعة في حالة وفاتهما. كما أن الأبوين يكونان في هذه المرحلة أكثر حنانا وطيبة وأكثر تقبلا لأفعاله وتسامحا مع أخطائه. وإذا كان فارق السن كبيرا بين الطفل الأخير وبقية إخوته فإن الجميع قد يتعامل معه على أنه ابنهم الصغير اللطيف المدلل المحبوب (سكر معقود)، ويصبح وكأنه لعبتهم اللذيذة وفاكهتهم المفضلة، وهذا شيء قد يسعد به الطفل (الطفلة)، ولكنه يضيق بشيء آخر مقابل وهو أنه يشعر أن الجميع يريد أن يمارس وصاية عليه، وأن الجميع يعطيه أوامر، فهو في آخر السلم الأسري. وحين يكبر يتعود أن يكون أحد مسئولا عنه فهو لم يتعود أن يكون مسئولا عن نفسه أو مسئولا عن أحد، ولهذا حين يريد أن يتزوج فهو قد يبحث (للا شعوريا) عن زوجة كالأم ترعاه وتوجهه وتحمل عنه مسئوليات ومتاعب الحياة، ولذلك قد تناسبه البنت «أكبر أخواتها» التي تعودت على دور الرعاية والاهتمام بإخوتها



مركز التدريب وتنمية المهارات ATC

بمستشفى

د. جمال ماضى أبو العزائم

دورات تدريبية

1 - مدرسة الإدمان

2 - الأخصائى النفسى الأكاديمي

3 - فن التعامل مع الأطفال

4 - فن التعامل مع المراهقين

5 - فن الطلاقات الزوجية الناجحة

6 - السمعة والعلاج النفسى

7 - كيف تحدد مستقبلك وتختار كاركيتك

8 - كيف تقلع عن التدخين

9 - أخصائى علم النفس العصبى

للحجز والاستعلام: 01111660232

د. هبة أبو العزائم

01113377766

طفل فوق رأس أخيه : وهو الوضع الذى يأتى فيه طفل بعد أخيه (أو أخته) بفترة قصيرة (أقل من ثلاث سنوات)، وهنا تكون المنافسة والندية على أشدها نظرا لاقتراب السن وعدم شبع الأخ السابق من الاهتمام وإحساسه بأن أخاه جاء مبكرا ليأخذ منه كل شيء .

ولد وحيد وسط أخوات : هنا تحدث مشكلات كثيرة حيث ينشأ هذا الولد فى بيئة أنثوية وربما يأخذ من صفاتهن الكثير، وربما يتحدث بصيغة المؤنث أو يرغب فى ارتداء الثياب الأنثوية ويتعامل بطريقة أنثوية، وربما يتطور الأمر لأكثر من هذا ويصاب باضطراب فى هويته الجنسية خاصة إذا كان الأب غائبا أو كانت العلاقة بينه وبين أبيه ضعيفة أو مضطربة . وقد يحدث تكتل أنثوى ضد هذا الذكر الوحيد خاصة إذا كان أكبرهم وحاول أن يتحكم فيهن، أو يحدث العكس حين يكون هو أصغرهم بحيث يعتبرونه لعبتهن (دبدوب) ويدللانه أكثر من اللازم .

بنت وحيدة وسط إخوة ذكور: ربما تنشأ لديها حالة من الاسترجال كنوع من التقليد للمجتمع الذكورى الذى تعيش فيه خاصة إذا كانت شخصية الأم ضعيفة أو أنوثتها باهتة ولا تغرى بالتوحد معها، أو تسترجل وتخشوشن لمواجهة الضغط المحيط بها من إخوتها الذكور خاصة إذا كانت كبيرتهم، وقد تأخذ فى هذه الحالة دور الأم القوية الحازمة، أما إذا كانت أصغرهم فقد تستمتع بدور الأنثى الوحيدة المدللة، خاصة إذا أحبها الأب وأحب أمها وكانت الأنوثة مقدرة فى الأسرة على ندرتها .

وكما رأينا فإن كل موقع أو ترتيب أو ظروف لطفل فى الأسرة قد يكون ميزة محفزة لتفوق، أو عيبا معوقا ومشوها للنمو، وهذا يتوقف على المنهج التربوى والوعى الإنسانى لدى الأبوين ولدى المجتمع. إن فترة الطفولة بما فيها من خبرات وصدمات ومنافسات وعلاقات وديناميات داخل الأسرة (المحضن الأساس وبروفة الحياة) تترك أثرا هائلا (سواء بالسلب أو الإيجاب) يلزم الإنسان طوال حياته .

وبعد طريق طويل من المعالجات الطبية يأتى طفل (أو طفلة)، وهنا نتوقع استقبالا حافلا، وخوفا شديدا على سلامة وصحة هذا الطفل، ثم حماية زائدة له، فليس مسموحا له أن يخرج من البيت حين يكبر إلا بصحبة أحد الأبوين، فالأم تذهب مع ابنها أو ابنتها إلى المدرسة وإلى الدروس الخصوصية، وربما تصحبهما إلى الجامعة ذاهبا وإيابا، ولا تسمح له (لها) بالاشتراك فى الرحلات المدرسية أو الجامعية (إلا إذا كانت معه)، ولا تسمح بعمل صداقات أو علاقات اجتماعية، وتدير حياته (حياتها) بحيث يكون دائما فى حضنها . وقد يعوق ذلك نمو الطفل (الطفلة) النفسى والاجتماعى، وقد تحدث مشكلات فى الطفل تأخذ أحد الأشكال التالية : التسليم تماما لهذه الحماية الزائدة والارتواء فى حضن أحد الوالدين أو كليهما بحيث يصبح شخصية اعتمادية سلبية، أو التمرد عليهما، أو اتباع سلوك مزدوج بحيث يرضيهما فى الظاهر ويفعل ما يشاء هوفى عدم وجودهما .

الابن بعد وفاة أخيه (أو البنت بعد وفاة أختها) : تكون لدى الوالدين حالة من الأسى والحزن وربما الشعور بالذنب والشعور بالفقد للابن (أو البنت) الذى مات فى حادث أو بسبب مرض فيتوجهان بمشاعرهما الدافقة نحو الابن (البنت) المتبقى ويحاولان تعويض حرمانهما فيه وتعويض شعورهما بالذنب نحو المتوفى فى المتبقى فيحيطونه بالحب والرعاية أكثر من اللازم ويخافان عليه ويبالغان فى حمايته أكثر من المطلوب، ويمنعانه من أشياء كثيرة وربما يحرمونه من حريته انطلاقا من خوفهما الكامن بداخلهما أن يفقده (أو يفقدها) كما فقدوا أخاه (أو أختها) . وقد يغريانه بتحقيق كل رغباته ليبقى قريبا منهما ويقدمان له كل الرشاوى المادية والمعنوية ليظل فى حضنهما، وهنا يفسد بناؤه التربوى وينشأ أنانيا هشا مستسلما أو يحدث العكس ويصبح متمردا شاردا بعيدا عنهما .